ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية ١٥٥١–١٥٨١م
صور من العلاقات العمانية – العثمانية

د. سعيد بن محمد الهاشمي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان

مُلَخّصْ

تلقي هذه الدراسة الضوء على المواجهة العثمانية–البرتغالية في المياه العمانية، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. وما مدى التعاون العماني – العثماني في الصراع مع البرتغالي. تعرضت السواحل العمانية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي لغزو برتغالي، وفرض سيطرته على هذه السواحل لأكثر من مائة وأربعين سنة. وكان حكام المدن الساحلية يدينون بالولاء للمملكة الهرمزية، بينما كان ولاء المدن الداخلية لأئمة عمان بنزوى. دخل الأسطول العثماني المياه العربية بعد أن ضم العثمانيون بلاد الشام ومصر والعراق واليمن، وإعلان حكام الأحساء والبحرين ولاؤهم للدولة العثمانية ١٥٣٤م. وأول اسطول عثماني نفذ من باب المندب نحو كجرات بالهند كان في أوائل سبتمبر ١٥٣٨م، ولكن هذا الأسطول رجع إلى مصر في نوفمبر من العام نفسه دون أن يشتبك مع البرتغاليين. وبقيت محاولات ضعيفة من قبل العثمانيين، لكن كل تلك المحاولات لم تتعد باب المندب إلا حملة بيري ريس التي خرجت من السويس ووصلت إلى البصرة عام ١٥٥٢م. مرّ الأسطول العثماني مرّ على السواحل العمانية ونجح في الوصول إلى مسقط وهزم حاميتها من البرتغاليين في ١٥٥٢م، وأسر عددًا منهم، ثم خرج منها نحو هرمز، وفشل في الوصول إلى قلعتها فسحب قوته إلى جزيرة قشم ومنها تابع سيره نحو البصرة، ثم قفل راجعًا إلى مصر حيث لقى قائد الأسطول مصيره الإعدام بتهمة التقصير. وثمّة محاولة أخرى كانت عام ١٥٨١م للقائد العثماني علي بك الذي نجح في الاستيلاء على مسقط بمساعدة الأهالي. ولكن بعد أن أخذ غنائمه، ترك مسقط عائدًا إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا. وبين هاتين المحاولتين شهدت السواحل العمانية صراعًا مريرًا بين البرتغاليين والعثمانيين، دون أن يكون للعمانيين فيه أي دور يذكر. تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور العثمانيين العسكري في مواجهة البرتغاليين في مسقط خلال الفترة: ١٥٥١م – ١٥٨١م، وذلك من خلال البحث في محاولات العثمانيين العسكرية للاستيلاء على مسقط، والسيطرة على المياه العمانية والعربية. وذلك من أجل إلقاء الضوء على أهداف تلك المحاولات ومكاسبها العسكرية والسياسية في المنطقة.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٨ فبراير ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٦ مايو ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
عمان، مسقط، العثمانيين، البرتغاليين، المحيط الهندي

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051242

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
سعيد بن محمد الهاشمي. "المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين في المياه العمانية (١٥٥١-١٥٨١م): صور من العلاقات العمانية – العثمانية".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة - العدد التاسع والثلاثون؛ مارس ٢٠١٨. ص١٨ – ٣٠.

مُقَدِّمَةُ

دخل الأسطول العثماني المياه العربية بعد أن ضم العثمانيون بلاد الشام ومصر والعراق واليمن، وإعلان حكام الأحساء والبحرين ولاؤهم للدولة العثمانية عام ١٥٣٤م. وأول أسطول عثماني نفذ من باب المندب نحو كجرات بالهند كان في أوائل سبتمبر ١٥٣٨م، وبقيت محاولات ضعيفة من قبل العثمانيين، لكن كل تلك المحاولات لم تتعد باب المندب إلا حملة بيري ريس

التي خرجت من السويس ووصلت إلى البصرة عام ١٥٥٢م. مرّ الأسطول العثماني على السواحل العمانية ونجح في الوصول إلى مسقط وهزم حاميتها من البرتغاليين في ١٥٥٢م، وأسر عددًا منهم، ثم خرج منها نحو هرمز، وفشل في الوصول إلى قلعتها فسحب قواته إلى جزيرة قشم ومنها تابع سيره نحو البصرة، ثم قفل راجعًا إلى مصر. وثمّة محاولة أخرى كانت عام ١٥٨١م للقائد العثماني علي بك الذي نجح في الاستيلاء على مسقط بمساعدة الأهالي. ولكن بعد أن أخذ غنائمه، ترك مسقط عائدًا إلى عدن ومنها إلى شرق إفريقيا. وبين هاتين المحاولتين شهدت السواحل العمانية صراعا مريرا بين البرتغاليين والعثمانيين، دون أن يكون للعمانيين فيه أي دور يذكر.

أهمية البحث: يلقي هذا البحث الضوء على المواجهة العثمانية- البرتغالية في المياه العمانية، خلال النصف الثاني من القرن ١٦م. وأهمية التعاون العماني – العثماني في الصراع مع البرتغاليين. حيث أن تعرضت السواحل العمانية في مطلع ال قرن١٦م لغزو برتغالي، وفرض سيطرته على هذه السواحل لأكثر من مائة وأربعين سنة. وكان حكام المدن الساحلية يدينون بالولاء للمملكة الهرمزية، بينما كان ولاء المدن الداخلية لأئمة عمان بنزوى.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى إبراز دور العثمانيين العسكري في مواجهة البرتغاليين في مسقط خلال الفترة: ١٥٥١م – ١٥٨١م، وذلك من خلال البحث في محاولات العثمانيين العسكرية للاستيلاء على مسقط، والسيطرة على المياه العمانية والعربية. وذلك من أجل إلقاء الضوء على أهداف تلك المحاولات ومكاسبها العسكرية والسياسية في المنطقة.

منهجية البحث: اتخذ البحث المنهج الوصفي التحليلي التاريخي لتحقيق أهداف البحث. ولذلك فإن هذا البحث قسم إلى مبحثين؛ أولهما تتناول الأحوال السياسية في عمان وماحولها في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وثانيهما: تعالج بالدراسة والتحليل الحملات العثمانية ضد البرتغاليين على السواحل العمانية، وطبيعة التعاون بين قادة هذه الحملات العثمانية، والعمانيين.

نتائج البحث: توصل البحث إلى نتائج هامة منها أن أهداف المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين كان اقتصاديا في المقام الأول وليس مطلبا سياسيًا أو دينيًا حسب ما وضحته الدراسة من سلوك قادة الحملات. كما أوضح البحث أن احتلال مسقط عام ١٥٥٢ و١٥٨١م من قبل العثمانيين لم يكن له أهداف سياسية محدودة، بل مغامرات من دون توجيه معين، ولهذا السبب جعل الكثيرون من الباحثين يلمزونها بالطمع والجشع وعدم المسئولية وهذا ما أكدته الوثائق الدولة العثمانية التي عمدت إلى معاقبة قادتها الذين تجاوزوا حدود المسئولية.

١-الأوضاع السياسية في عمان في القرن السادس عشر الميلادي

انتهت دولة بني نبهان الأولي عام (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)، وعلى أثرها تم انتخاب محمد بن إسماعيل الحاضري القضاعي إماما في نزوى، وقد استمر حكم هذا الإمام حوالي ٣٦ سنة[١]، ثم خلفه ابنه بركات بن محمد الذي حكم حتى خروجه من نزوى عام (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) إلى بهلاء ودخول الشيخ سلطان بن محسن بن سليمان بن سليمان النبهاني نزوى، مستغلا خروج الإمام بركات منها وإعلان دولة بني نبهان الثانية (٩٦٤هـ/١٥٥٦م – ١٠٢٦هـ/١٦١٧م)[٢]. إن فترة الإمام محمد بن إسماعيل (٩٠٦هـ/١٥٠٠م – ٩٤٢هـ/١٥٣٥م) كانت مضطربة، حيث لم يفرض سلطته على عمان كلها، فالسواحل العمانية ظل تحت نفوذ الإمبراطورية الهرمزية منذ عام (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، حينما استولى عليها محمود بن أحمد الكوشي القلهاتي أثناء حكم السلطان النبهاني أبا المعالي كهلان بن نبهان بن ذهل. كما أن مدينة الرستاق يحكمها اليعاربة[٣] وهم في نصر بن زهران من الأزد،[٤] وقد توارث حكمها منذ معركة بوه بولاية نخل عام (٥٧٩هـ/١١٨٣م) بين الإمام موسى بن أبي المعالي كهلان بن موسى بن نجاد وحاكم الرستاق محمد بن مالك بن شاذان، حيث يصل نسب اليعاربة.[٥]

ثم أن عددًا من مناطق عمان لم تكن خاضعة لهذا الإمام مثل منطقة الباطنة والشرقية والظاهرة، وفي عهد هذا الإمام محمد بن إسماعيل استولى البرتغاليون على السواحل العمانية عام (٩١٣هـ/١٥٠٧م)، بصفتها تابعة للمملكة الهرمزية التي سيطروا عليها مع بقاء الملك شكليًا، وفي نفس الوقت تابعًا للملك البرتغالي. وكانت مملكة هرمز تعتبر في ذلك الوقت أكبر تنظيم سياسي واقتصادي عرفته المنطقة[٦]. واشتعل الخلاف بين الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن مداد الناعبي حول الكثير من المسالك السياسية والاقتصادية، الأمر الذي أدى إلى خلعه من الإمامة. فاستغل الشيخ سلطان بن محسن بن سليمان النبهاني هذا النزاع، واستولى على نزوى ثم بهلاء من الإمام بركات الذي فر إلى منطقة الظاهرة، وبذلك قامت دولة النباهنة الثانية.

لهذا كله لم يجد سكان المناطق الساحلية النصير والعون المادي والمعنوي من أئمة عمان وسلاطين بني نبهان أو أسرة اليعاربة، الذين يحكمون الرستاق، للقيام بطرد البرتغاليين أو الحد من نفوذهم في مصادرة كل سفينة تدخل البحر من دون موافقتهم العسيرة. ولهذا قلّ الإنتاج الاقتصادي وانقطع التواصل البحري التجاري بين عمان والعالم الخارجي، إلا فيما ندر على الأقل في العقود الأولى من الغزو وبهذا ضعفت الإمكانيات وأصاب أهل عمان الخمول والضعف، وعدم وجود من يحمس الناس ويدعوهم إلى الجهاد والوقوف في وجه هيمنة البرتغاليين وأعوانهم من ذوات المصالح السياسية والاقتصادية.

٢- النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج وعمان

بعد سقوط الأندلس في مطلع التسعينيات القرن الخامس عشر الميلادي، سعى الإسبان والبرتغاليون إلى الوصول إلى الهند، ونجح البرتغاليون في الوصول إلى الهند قبيل نهاية القرن وذلك بعد الالتفاف حول القارة الإفريقية، واكتسابهم مهارة الخبرة البحرية، وبفضل تشجيع الأمير (Henrique) هنري الملاح (١٣٩٤م - ١٤٦٠م)[٧] الذي اشتهر بحقده الشديد للعرب والإسلام[٨]. يُعَدّ المكتشف البرتغالي فاسكو داي جاما[٩] (Vasco De Gama) الذي وصل إلى ساحل ملبار ونزل في ميناء كاليكوت بالهند في ٢٧ مارس ١٤٩٨م[١٠]، يُعَدّ من أكبر المكتشفين البرتغاليين، وبوصوله إلى الهند فقد حقق حلما أوروبيا دأبوا على تحقيقه منذ أمد بعيد.

بعد هذا الإنجاز الذي حققه البرتغاليون، تتابعت حملاتهم العسكرية إلى الهند لفرض إرادتهم ونفوذهم، وإذا كانت الحملتين الأوليتين[١١] برتغاليتين قد فشلتا في إخضاع حاكم كاليكوت السامري، فإن الحملة الثالثة بقيادة فرانسيسكو دا الميدا (Francisco de Almeyda) عام ١٥٠٥م قد حققت نجاحًا سياسيًا وعسكريا كبيرين. وفي العام التالي أرسل ملك البرتغال حملة رابعة كانت بقيادة تريستاو دي كونها (Tristao De Conha) ويرافقه افونسو دي البوكيرك (Affonso De Buqerque) والتي خطط لها أن تغزو البلاد العربية والإسلامية[١٢]، وعند وصول البرتغاليين كانت تجارة الهند والشرق الأقصى بيد المسلمين وأغلبهم من عرب الجزيرة العربية. وقد وضع البرتغاليون خططًا وأهدافًا لتواجدهم في المحيط الهندي، أهمها الهيمنة على المراكز والموانئ العربية والإسلامية، وكذلك موانئ سواحل شرق إفريقيا، والهيمنة على مملكة هرمز وتوابعها لأكونها تتحكم في مدخل الخليج العربي، والاستحواذ على طرق التجارة من الهند إلى غرب أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح[١٣].

وذكرت المصادر أن مهمة البوكيرك كانت موجهة نحو السفن العربية والإسلامية. بعد استيلاء تريستان والبوكيرك على سوقطرة[١٤] وقتل حاكمها الشيخ إبراهيم بن قشن[١٥]، افترق القائدان، فاتجه تريستان إلى الهند في أغسطس ١٥٠٦م بينما توجه البوكيرك قبله إلى عدن وباب المندب، ترافقه سبع سفن عليها ٤٦٠ جنديًا، ففشل في اقتحام عدن ولم يشأ أن يدخل مياه البحر الأحمر. وبذلك فضل الصعود شمالاً مكتشفا الموانئ اليمنية والعمانية، فوصل إلى جزيرة مصيرة في أواخر شهر أغسطس. ومنها انتقل إلى رأس الحد ثم قلهات، وفي طريقه صادف وجود عدد من السفن العمانية فتمكن من حرق ٤٣ سفينة كانت على مدخل خور جراما بالقرب من رأس الحد وعند وصول البوكيرك قلهات هادنه صاحبها خوفًا من تدمير المدينة[١٦]، ودفع له المال والمؤن، وأخبره أنه تابع للإمبراطور الهرمزي سيف الدين ووزيره خوجا عطار. فغادرها في ٢٢ أغسطس إلى قريات التي قاومته بشدة وعنف، ولكن مدافع البوكيرك وعنفه أدى إلى حرق المدينة و٨٣ سفينة كانت تدافع، ثم انتقل إلى مسقط وفرض حصاره عليها. وبعد مقاومة عسكرية سقطت المدينة في أيدي جنده[١٧]. ووقع ملك هرمز سيف الدين اتفاقية التبعية والولاء لملك البرتغال في نهاية شهر جمادي الأولى ٩١٣هـ/ سبتمبر ١٥٠٧م[١٨]، تنص الاتفاقية على إعفاء السلع البرتغالية من الضرائب[١٩]، وألا تتحرك أية سفينة في الخليج إلاّ بإذن من السلطات البرتغالية. ثم تابع البرتغاليون انتصاراتهم فقضوا على دولة بني جبر في منطقة البحرين والأحساء عام (٩٢٧هـ/١٥٢١م)، وقتلوا حاكمها الشيخ مقرن بن زامل الجبري شنقًا[٢٠]. وكان بنو جبر من أقوى الإمارات في المنطقة حينئذ. ولهذا لم تتضح لنا أسباب عدم خروج هذه الإمارة عن مجالها الإقليمي في مساندة العمانيين أو الهرمزيين على الرغم أن البوكيرك أشار في مذكراته أن بنو جابر كان لهم نفوذ على السواحل العمانية[٢١].

وكان الصفيون حكام بلاد فارس مشغولين مع جيرانهم العثمانيين في حروب سجاليه بينهم[٢٢]، على الرغم من وجود أعظم حكامهم الشاه إسماعيل (١٤٩٩م - ١٥٢٤م) وكانت عاصمة الدولة مدينة تبريز. ولم ير الصفيون مصلحتهم أن يحتكوا بالبرتغاليين نكاية بالهرمزيين والعرب. بل في الحقيقة أن الصفويين كانوا يعولون على كسب صداقة البرتغاليين وتبادل الوفود بينهما[٢٣]. وعلى وجه الخصوص بعد هزيمتهم في موقعة شالديران عام ١٥١٤م[٢٤]، وسقوط تبريز والعراق في أيدي العثمانيين. وقيل أن البوكيرك بعث برسالة إلى الشاه إسماعيل يقدم فيها مساندته فتقول الرسالة: "إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة، فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له ما يريد"[٢٥]، وهناك رسائل أخرى يعرض فيها البوكيرك أن يكون بينه والشاه حلفًا عسكريًا لمواجهة أعدائهما.[٢٦]

وبهذا سيطر البرتغاليون على منطقة الخليج وعمان، وفرضوا نفوذهم وهيمنتهم القوية على السكان الذين أصابهم الضعف والهوان والتفكك فضلاً عن الصراع الداخلي بين المدن.[٢٧] وبذلك تملك البرتغاليون زمام الريادة في المحيط الهندي ومنعوا السفن التجارية من الوصول إلى الهند[٢٨] إلا بتصريح[٢٩] موقع من ملك البرتغال يعرضوه على كل سفينة برتغالية تصادفهم، وكان ذلك التصريح نادر الوجود وغير فعال -في كثير من الأحيان-، حيث كانت بعض السفن البرتغالية تعترض السفن العربية وينهب محتوياتها ويُقتل بحارتها سواء كان لدى هؤلاء تصريح بدخول البحر أم لا. كما أن نظام القوافل البحرية الذي فرضوه على أهل بحر ساعد على تكرر هذه الممارسة، ومعاملة البرتغاليين لكل ما هو مسلم بالوحشية[٣٠] على خلاف الأقوام والديانات الأخرى.[٣١] وبهذا انقطعت التجارة بين الهنود والعرب وانعدمت التجارة بين الجزيرة العربية وبلاد أوروبا الشرقية، بعد أن كانت للسفن العمانية والعربية في المحيط الهندي والخليج العربي أدوارًا رئيسة في ازدهار الاقتصاد العالمي.[٣٢] وانتقل الثقل التجاري بعد ذلك

إلى لشبونة عاصمة البرتغال. وأصبحت أسواق لشبونة تختص في تجارة البهارات والسلع الشرقية، يغدون إليها تجار أوروبا.

٣- المواجهة المصرية - البرتغالية

وبناءً على ذلك التدهور الاقتصادي في البلاد العربية والإسلامية[٣٣] تحمس قانصوه الغوري سلطان مصر (٩٠٦هـ/١٥٠٠م - ٩٢٢هـ/١٥١٦م) لهذا الوضع، واستجاب لدعوة سلطان كجرات[٣٤] محمود بيكر في مواجهة البرتغاليين[٣٥] وقرر مصادمة البرتغاليين في المحيط الهندي فأرسل حملات عديدة آخرها الحملة التي قادها حسين الكردي المكونة من خمسين سفينة، والذي تصادم مع البرتغاليين في السواحل الغربية للهند، وكانت أبرز المعارك التي التقي فيها الكردي مع البرتغاليين هي معركة "شول chaul" عام ١٥٠٨م التي انتصر فيها، وقتل فيها ابن نائب الملك لورنزو دي الميدا lorenze de Almeyda . واللقاء الآخر كان في الثالث من فبراير ١٥٠٩م، حيث انهزم الكردي في معركة "ديو البحرية" بالقرب من جزيرة ديو الهندية[٣٦] التابعة لسلطنة كجرات الإسلامية[٣٧] التي استنجدت بالغوري سلطان مصر[٣٨]. وقيل أن القائد حسين الكردي لم يسمع لنصائح مالك آياس حاكم ديو وتحذيراته[٣٩]. وقيل بأنه كان مندفعًا بحماس كبير، ولا يستبعد صاحب كتاب "تحفة المجاهدين" وقوع خيانة.

وبعد ذلك انحسرت القوات المصرية في حماية مدخل البحر الأحمر، ومنع السفن البرتغالية من دخولها البحر الحمر، وحماية المقدسات الإسلامية. وتحصين جدة خوفا من مباغتة القوات البرتغالية للمدينة، وتسيير حملات عسكرية، منها حملة بقيادة سليمان الرومي عام ١٥١٥م[٤٠]، الذي اتخذ جزيرة[٤١] كمران[٤٢] مركزًا وقاعدة للسفن الحربية المصرية. وفوق ذلك الاستعداد فإن السفن المصرية لم تخرج من باب المندب، واشتغلت هذه القوة في تحصين مدينة جدة، وتعقب السفن البرتغالية التي جالت في البحر الأحمر وذلك لضعف التفاهم بينهم وحكام اليمن. ووجهت سلاحها على اليمنيين وتناست أهدافها الأساسية، وبذلك غضب الغوري من تصرفها، فأوقف إمداد الحملة[٤٣]. هذه القوات بقت في اليمن دون حراك، غير أن الذي زاد الطين بله أن حاكم عدن الأمير مرجان الظافري (ت. ٩٢٧هـ)[٤٤] عقد معاهدة صلح عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م) مع نائب الملك البرتغالي في الهند لوبو سوريز دي الباكاريا Lopo Soares de AlBergaria، حتى يؤمن إمارته من هجوم برتغالي بحري بعد أن وقع بينهم وبين القوات المصرية في البرّ.[٤٥]

٤- العثمانيون في مواجهة البرتغاليين

ركزت الدولة العثمانية عملياتها العسكرية الجهادية في مواجهة القوى الأوروبية في البحر المتوسط خلال القرن ١٥م وما بعده، وكان ثمة قادة حملوا لواء الجهاد مثل خير الدين بربروسا وأخيه وغيرهما. ولما جاء الخطر من الشرق وانقطعت التجارة عبر البلاد العربية، وفشلت المماليك المصريين في معركة ديو البحرية عام (٩١٥هـ/١٥٠٩م)، وانشغالهم عن متابعة جهودهم العسكرية كما أشرنا، اتجهت الدولة العثمانية إلى المناطق العربية.

وقد أشرنا أن العثمانيين قد انتصروا على الشاه إسماعيل في معركة جالد إيران عام (٩٢٠هـ/١٥١٤م)، وأشرفوا على حدود بلاد الشام الشمالية واحتلوا بغداد[٤٦]، وتشير المراسلات بين السلطان الغوري والشاه إسماعيل إلى الرغبة في تكوين حلف بينهما ضد النفوذ العثماني، وعندما وصل خطر العثمانيين على مشارف حدود المماليك في بلاد الشام، وشعر السلطان الغوري بالخطر المحدق، قاد جيشه نحو الشام لصد العثمانيين، ولكنه سقط في معركة مرق دابق ميتا في ٢٣ رجب ٩٢٢هـ/٢٤ أغسطس ١٥١٦م[٤٧]. وبذلك احتل السلطان العثماني سليم الأول بن بايزيد (٩١٨هـ/١٥١٢م - ٩٢٧هـ/١٥٢٠م) بلاد الشام، ثم تلتها مصر بعد معركة الريدانية عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)[٤٨]. وأعلن أشراف الحجاز خضوعهم للخلافة العثمانية[٤٩]. ثم اخضع العثمانيون الموصل وبغداد عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م، وبذلك أصبح العثمانيون على مشارف سواحل الخليج العربي.

أشرف العثمانيون على خليج السويس بعد استيلائهم على مصر في (٩٢٣هـ/١٥١٧) وأصبح البحر الأحمر مفتوحا لعملياتهم العسكرية بعد أن وصلوا اليمن واحتلوا أجزاء منها، وتمركزوا في عدن[٥٠]. ثم بدأت حملة سليمان باشا المعروف بسليمان الخادم على جزيرة ديو لمساندة مملكة كجرات الإسلامية، وحاصر قلعتها ولم يتمكن منها فعاد إلى عدن في يوم الاثنين ١٢ جمادى الثانية ٩٤٥هـ/ ٥ نوفمبر ١٥٣٨م[٥١]، ويعلق جورج ستربلنج G. Stripling على هذه الحملة بقوله "أن عدم نجاح هذه الحملة الضخمة لم يحدث بسبب أن العثمانيين كانوا أدنى من البرتغاليين في السفن والسلاح بل لأن قيادة الحملة كان سيئة وجبانة وغير كفأة"[٥٢]. وفي عام (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) قام علي بن سليمان البدوي الطوالقي أمير خنفر[٥٣] بثورة على الوجود العثماني واستولى على عدن عام (٩٥٣هـ/١٥٤٧م)[٥٤]، وأرسل خطابًا إلى حاكم هرمز البرتغالي يطلب منه معاونته ضد الأتراك[٥٥]، ولكن مساندة البرتغاليين للطولقي جاءت متأخرة حيث وصلت عام (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، فوجدت الطوالقي قد انتهى أمره وقضى عليه من قبل فرهاد باشا حاكم اليمن العثماني الجديد في محرم من عام (٩٥٥هـ/١٥٤٨م).[٥٦]

بدأت العمليات العسكرية للعثمانيين في منطقة الخليج العربية، حينما استنجد أهل الأحساء والقطيف بسلطان البصرة الشيخ راشد بن مغامس بن صقر آل شبيب الفضلي[٥٧]، وذلك على أثر سقوط دولة الجبور بها، ففرض الشيخ راشد سيطرته عليها عام أوائل ٩٣١هـ/ أواخر١٥٢٤م[٥٨]. ثم ضم القطيف إلى حكمه عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، بعدها وعلى أثر تحرش والي بغداد بحدود البصرة، سارع الشيخ راشد وأرسل بعثه دبلوماسية إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (ت. ٩٧٤هـ/١٥٦٦م) برئاسة ابنه مانع ووزيره محمد وقاضي عسكره لتهنئة السلطان سليمان على فتحه بغداد، وتسليم مفاتيح البصرة وهدايا قيمة. انتهت هذه البعثة باعتراف السلطان العثماني براشد بن مغامس آل عليان حاكمًا على البصرة والأحساء مدى الحياة[٥٩]، على أن يذكر

اسمه في الخطبة والنقود، وأن يدفع مبلغًا من المال للخزينة العثمانية، وأن يعمل بما يأمره ولاة البصرة[٦٠]. وبهذا أضحى الشيخ راشد أحد ولاة العثمانيين في منطقة الخليج،[٦١] غير أن أوضاع البصرة اضطربت بعد وفاة راشد (ت. حوالي ١٥٣٩م)، حيث اختار أهل البصرة الشيخ عثمان بن محمد بن مغامس الفضلي بدلا من الشيخ مانع بن راشد بن غامس الذي اكتفى بحكم الأحساء والقطيف موقتًا. ولكنه عاد إلى البصرة بعد وفاة ابن عمه عثمان أمير البصرة حوالي عام ١٥٤٣م، وعاد الصراع بين آل بيت مغامس من جديد ينتهي بخروج مانع إلى الأحساء والقطيف وترك البصرة لأبن عمه يحيى بن محمد بن مغامس[٦٢].

وتآمر الشيخ يحيى على الشيخ مانع بالتعاون مع حالكم البحرين، أنتهى الأمر أن رمى الشيخ مانع نفسه في احضان البرتغاليين برسالة مؤرخة في شعبان ٩٥١هـ/نوفمبر ١٥٤٤م إلى لويس فلكاو بربرا قبطان هرمز (١٥٤٤م – ١٥٤٧م) طلب فيها صداقتهم، وأنه على استعداد تسليم القطيف لهم مقابل مساندته في استرجاع البصرة[٦٣]، ويبدو أن شروط البرتغاليين على الشيخ مانع كانت قاسية، لم يرد أن يغامر في المجهول، وعلى العموم استعاد البرتغاليون القطيف في رجب ٩٥٢هـ/سبتمبر١٥٤٥م، دون أن يقاوم الشيخ مانع بل انسحب من القطيف، ثم مات في الأحساء. واستبد الشيخ يحيى في البصرة، ورفض الانصياع لمطالب والي بغداد[٦٤]، ولهذا قرر السلطان سليمان القانوني أن يثبت وجود سلطته في منطقة الخليج، وذلك لمواجهة البرتغاليين مباشرة. لهذا بدا العثمانيون بالاستيلاء على البصرة، فقد سار إليها والي بغداد أياس باشا على رأس حملة كبيرة، فاستولى عليها في ٢١ شوال ٩٥٣هـ/٢٦ ديسمبر ١٥٤٦م[٦٥]. وطرد الشيخ يحيى منها، ثم سيطروا على القطيف. وبذلك أصبحت البصرة وما حولها من الأراضي بكلربكلك، وعين بلال محمد محافظا عليها. فسارع الشيخ يحيى شيخ البصرة المطرود بطلب النجدة من البرتغاليين[٦٦]، فأنجدوه بألف ومائتي جندي عام ١٥٤٧م تحت قيادة انطاو دي نورونها (Antao De Noronha)، ولكن عادت الحملة دون تحقيق مكاسب سياسية، وأعلن أهل القطيف تبعيتهم للدولة العثمانية وذلك لحمايتهم من البرتغاليين[٦٧].

ونخلص إلى ما أشرنا إليه؛ من أن الأسطول العثماني لم يواجه البرتغاليين في موانئ الخليج العربي ولا مياه عمان قبل عام ١٥٥٠م، باستثناء حملة سليمان الخادم التي وصلت إلى جزيرة ديو واشتبكت مع البرتغاليين، ثم انسحب من المعركة وعاد إلى اليمن في ربيع الأول ٩٤٥هـ/أغسطس ١٥٣٨م، وبعد هذا التاريخ أي عام ١٥٥٢م بدأ الاحتكاك العثمانيين بالبرتغاليين في الخليج العربي.

٥-الحملة العثمانية على مسقط عام ١٥٥٢م

إن الحملة العثمانية التي خرجت من السويس بقيادة بيري علي ريس (Pirri Ali Reis) كان هدفها الأساسي الاستيلاء على هرمز ثم البحرين[٦٨]، وحماية البصرة وموانئ الخليج العربي الخاضعة للدولة العثماني[٦٩]. إن هذه الحملة التي خرجت من السويس في جمادى الأولى ٩٥٩هـ/إبريل ١٥٥٢م كانت مكونة من ثلاثين سفينة[٧٠] من نوع الغراب والشانية، وتحمل أكثر من ستة عشر ألف جندي[٧١]، كانوا تحت أمرة بيري محيي الدين على ريس أشهر أدميرالات العثمانيين في مصر.[٧٢]

فخرج الأسطول الحربي العثماني من السويس في جمادى الأولى ٩٥٩هـ/إبريل ١٥٥٢م، فوصل عدن، ومنها انطلق نحو الشمال محاذيا السواحل اليمنية، حتى مر على سواحل ظفار دون أن يتوقف، حتى وصلت سفنه أمام مسقط، فحاصرها. ولا نستبعد من مشاركة العمانيين في تسهيل رجال الحملة بالنزول في مرفأ سداب الواقعة جنوبي مسقط، وتحدث محمد بن بيري مع شيوخها وأعيانها طالبًا منهم مساندة الحملة بعد أن عرّفوا بهويتهم وغايتهم. بعد تداول الموضوع سهلوا لهم الطريق البري مع توفير الأدلاء، وشاركهم المجاهدون من أهل سداب والقرى المحيطة بمسقط، وشرحوا لهم الموقف والغاية من قدوم العثمانيين إلى مسقط للتخلص من البرتغاليين.

وقبل وصول حملة بيري ذكر لوبيز لوباتو (Lopez Lobato) المعتمد البرتغالي في هرمز في رسالة إلى حاكم الهند والمؤرخة في ٣١ أكتوبر ١٥٤٦م، أنه في نفس العام وصلت أربع سفن عثمانية المياه العمانية، وأنها ذهبت مباشرة إلى مدينة قلهات العمانية وهاجمتها بعد أن طلب قائد السفن الأربع من حاكمها بتسليم المدينة، ولكنه رفض. ثم انسحب عنها واتجهت هذه السفن إلى مسقط وأضرموا النار فيها ثم انصرفوا[٧٣]. وفي الحقيقة أن الوثائق العثمانية لم تشر إلى هذه الحملة ولم يكن في استطاعة السفن العثمانية الخروج من البصرة إلى الموانئ العمانية، ومن المحتمل أنها خرجت من عدن وكان عليها مغامرون يستكشفون السواحل العمانية لمعرفة قوة العدو.

ومن خلال استقراء رسالة دون مانو ثيل دي ليما حاكم هرمز إلى جوا ودي كاسترو حاكم الهند والمؤرخة في ٢٣ يونيو ١٥٤٧م، نستشف مجموعة من الحوادث والاستعدادات لمواجهة السفن العثمانية، فيذكر أنه أمر بإعداد تسع سفن حربية موجودة في الخدمة للتهيئ للحركة نحو مسقط في نهاية شهر يونيو ١٥٤٧م، لترسو هناك في انتظار وصول السفن التركية المتوقعة قدومها من اليمن، وذلك بناء على ورود معلومات من عدن تفيد أن العثمانيين يستعدون للقدوم إلى المنطقة بعد مدة لا تزيد عن شهرين ونصف. وتعتبر الرسالة أن بقاء السفن في مسقط، كان لخدمة مصالح الملك البرتغالي، وتضيف أنه قرر إرسال سفينتين حربيتين إلى رأس الحد في عمان لرصد تحركات الأسطول العثماني.[٧٤]

ومهما كانت الصعوبات، فإن محمد بك ابن بيري علي ريس وصل شواطئ مسقط، ومعه خمس سفن كبيرة، قبل أن يلحقه

والده بستة أيام، ويبدو أن سبب تأخر بيري عن ولده هذه المدة، يعود إلى أنه قد ألتقى عند رأس الحد بقوة برتغالية بقيادة سايمو دا كوستا (Simao da Costa) الذي كلفه حاكم هرمز الفارو دي نورونها (Alvaro de Noronha) بأن يخرج بأسطوله للبحث عن الأسطول العثماني وصده عن الموانئ الهرمزية، وقد وردت إليه أخبار من اليمن تفيد بأن العثمانيين قد جهزوا حملة عسكرية لتتوجه إلى البصرة. وتصادف بيري مع القوة البرتغالية وتمكن من تحطيمها[٧٥]. ويعتبر هذا الانتصار أول نصر حققه بيري على السواحل العمانية، وبذلك ارتفعت معنويات جنده، وأصبح الطريق مفتوحًا أمامه إلى مسقط[٧٦]. غير أن أسطوله تعرض لعاصفة كبيره فُقدت بعض سفنه، والنجأ بإحدى خلجان السواحل العمانية لعدة أيام ثم أبحر نحو مسقط. وعند وصوله شدد من محاصرة مسقط بحرًا، وساعده العمانيون بتضييق الخناق برًا. وكان عدد الحامية البرتغالية بمسقط لا تتجاوز ٦٠ جنديًا برتغاليا تحت أمرة جواو دي لزبوا (Joâo de Lisboa). وكان هذا القائد قد أرسله حاكم عام الهند الفونسو ذي نورونها (Affonso De Noronha) إلى مسقط لأجل تشييد حصنها وتقوية مداخلها وحمايتها من تحركات العثمانيين في المياه العربية الشرقية.

وبعد ثمانية عشر يومًا من الحصار استسلمت حامية مسقط البرتغالية[٧٧]، وفق شروط تعهد بها بيري في أول الأمر، وأهمها أن يخرج القائد جواو من قلعة مسقط وبرفقته بقية جنوده الأحياء إلى هرمز بكافة أسلحتهم، ولكن بيري لم يشأ أن يلزم نفسه بهذا الشرط، وفور نزولهم القلعة جردهم من أسلحتهم، وأخذهم رهائن في سفنه.[٧٨] ولعل استسلام مسقط يعود إلى ضعف الحامية البرتغالية، ونفاذ المعدات الحربية والمعيشية على المحاصرين، والتعاون العماني في بداية الأمر مع قادة الحملة العثمانية. ويعود الفضل إلى ابن بيري علي المدعو محمد الذي وصل مسقط بستة أيام قبل أن تكتمل الحملة، فقام بترتيب هذا التعاون مع أهالي مدينة سداب ومسقط، والذين أقنعوا حاكم مسقط وهو ممثل أمير هرمز.[٧٩]

لقد قيل أن بيري علي ريس احتل مسقط "دون صعوبة تذكر"[٨٠]، والحقيقة خلاف ذلك. فقد حاصر مسقط لمدة ثمانية عشر يومًا حتى استسلمت الحامية وفق شروط قائدها، ولعلّ بيري كان يُرك أن الحصار قد يطول شهورًا، لذا على ما يبدو قبل شروط قائد الحامية تفاديًا لإطالة الحصار والتسبب في هلاك العشرات من جنوده. وكان لمسقط تحصينات قوية لا يمكن أن تسقط بهذه السهولة، ولذلك نستبعد الرأي القائل بأن مسقط سقطت في يد بيري ريس بسهولة.

ليس لدينا تاريخًا محددًا لوصول العثمانيين إلى مسقط، ولكن ثمة بعض المراجع تذكر أن احتلال مسقط كان في شهر أغسطس ١٥٥٢م، وأن وصول بيري إلى هرمز كان يوم الأثنين٣٠ رمضان ٩٥٩هـ/ ١٩ سبتمبر ١٥٥٢م وكان تاريخ الخروج من مسقط يحتمل في يوم الأحد ٢٩ رمضان ٩٥٩هـ/ ١٨ سبتمبر ووصوله هرمز بعد يوم واحد من مغادرته مسقط أي في يوم الأثنين٣٠ رمضان/ ١٩ سبتمبر، وعلى ذلك تكون فترة السيطرة العثمانية على مسقط قد دامت شهري أغسطس وسبتمبر من عام ١٥٥٢م. ومن المحتمل أن يكون بيري علي قد مكث مدة بعد استسلام حاميتها، ونستبعد ما ذكرته بعض المصادر من أنه غادر المدينة بعد ليلة واحدة.

غادر بيري علي ريس مسقط، وبرفقته أسراه وغنائمه، دون أن يترك أحدا لقيادة القلعة لا من أتباعه ولا من الأهالي وزعماء عمان[٨١]. وسحب كل وسائل الدفاع التي من الممكن أن يستفيد منها أهل مسقط؛ لأجل الدفاع عن أنفسهم. إن الغنائم التي حصل عليها بيري من البرتغاليين أو أثرياء مسقط كثيرة. لقد ترك بيري علي كثير من الاستفسارات التي لم نجد لها إجابات مقنعه عن خروجه هكذا بدون علم الأهالي. فهنالك من قال: أنه سمع أن البرتغاليين يعدون في الهند حملة كبيرة لاسترجاع مسقط بعد وصول الأخبار إليهم بسقوطها، وهنالك من رأى أن احتلال مسقط لم يكن الهدف الأساسي الذي جاء من أجله بيري على، إنما هي المصادفة والقدر الذي ساقه إلى مسقط والانتصار على الأسطول البرتغالي هناك. ويمكن أن نضيف رأيًا آخرًا لخروج بيري علي من مسقط بصورة مفاجأة، وهو عدم تعاون العمانيين بصورة جدية مع بيري علي. بعد تحقيق انتصاره واستيلائه على مسقط، لم يعر لهم بالا، ولهذا اعتبروه مثله مثل غيره من القادة البرتغاليين لا فرق بينه وبين الطامعين الآخرين، لهذا أهملوه وانصرفوا عنه غير مبالين به.

وفي الحقيقة أن كل الاحتمالات وارده فإن حاكم الهند الفونسو ذي نورونها أعدّ حملة بلغ عدد سفنها ثمانين سفينة، وكان ينوي أن يقودها بنفسه وعندما وصل إلى جوا علم بأن بيري علي غادر مسقط وهرمز في نهاية شهر أكتوبر، بل أنه وصل البصرة في شهر فبراير ١٥٥٢م.[٨٢]

٦- المواجهة العثمانية – البرتغالية بين عامي ١٥٥٣ و١٨٨١م

لقد مكث بيري علي ريس في البصرة حتى نهاية العام، وعلم من هناك أن قباد باشا (Pasha Qubad) بيلربي البصرة أرسل تقريرا عن بيري على شرح فيها كمية الغنائم التي كانت لدى بيري، وكيف حصل عليها من التجار المسلمين سواء في مسقط أو هرمز أو قشم، وعدد السفن التي كانت معه والسفن التي تحطمت، والأسرى الذين ينوي بيري أن يطلب فدية مقابل إطلاق سراحهم. فعرف بيري أن هذا التقرير كان في غير صالحه؛ لأن التقرير فيه تحامل كبير على بيري الذي تعرض لأموال المسلمين في مسقط وهرمز وقشم، وأنه قد أساء إلى سمعة الدولة العثمانية بسلب أموال التجار المسلمين. لهذا قرر ترك البصرة والعودة إلى السويس، فأخذ من سفنه ثلاث سفن حمل عليها الغنائم والأسرى، فغرقت إحدى سفنه قبالة السواحل البحرينية، ووصل مصر بسفينتين في أكتوبر ١٥٥٣م. وعند وصوله، وجد الأوامر السلطانية تنتظره، فقبض عليه وأخذ إلى إسطنبول، حيث أُعدم بتهمة الإهمال[٨٣] ومخالفة الأوامر

والتعليمات التي كلف بها، مما أدى إلى فشل الحملة وتدني سمعة البحرية العثمانية.[٨٤]

ولهذا قرر السلطان سليمان أن يكلف أحد قادته لنقل السفن الباقية في البصرة إلى السويس، وقد عين في بادئ الأمر مراد بك ريس والي سنجق القطيف قائدًا للأسطول العثماني في البصرة، وصدرت الأوامر السلطانية إليه بأن يقود هذا الأسطول إلى مصر. وفي أغسطس ١٥٥٣م خرج مراد بك من البصرة وبمعيته ستة عشر سفينة نحو السويس، وحينما كان يعبر مضيق هرمز باغتته السفن البرتغالية بقيادة دييجو دي نورنها (Diego De Noronha)، الذي علم بهذا التحرك، فاستعد لاعتراضه بين جزيرة هنجام في مدخل المضيق ورأس مسندم. وخسر مراد بك بعض سفنه وقتل من معاونيه سليمان ريس ورجب ريس وعدد كثير من جنده، ثم هرب بحارته ليلا إلى البصرة، وفي النهاية قرر العودة إلى البصرة.[٨٥]

بعد فشل مراد بك عين السلطان العثماني سليمان القانوني سيدي علي ريس (Seydi Ali Reis) ويسمى علي بن حسين كما يعرف بسيدي علي شلبي، وهو من قادة البحرية العثمانية[٨٦]. كان يشغل منصب قائد أسطول منطقة إسطنبول[٨٧]، ثم نقله السلطان وعينه أميرًا على الأسطول العثماني في مصر. فصدرت له الأوامر السلطانية بأن يُرجع الأسطول العثماني من البصرة إلى السويس، ونصت التعليمات أن يذهب إلى البصرة عن طريق البر، وأن يقود الأسطول العثماني الذي تركه بيري علي ريس والعودة به إلى مصر. فاستجاب لهذا التكليف ووصل إلى البصرة في شهر ربيع الأول ٩٦١هـ/فبراير ١٥٥٤م، فاستقبله والي البصرة مصطفى باشا[٨٨] الذي كان يعاني من ثورات القبائل العربية (آل مشعشع وآل عليان)، فحاول سيدي علي مساعدته في استتباب الأمن وإخضاع القبائل، كما اهتم بصيانة الأسطول.

في شهر يوليو١٥٥٤م أبحر سيدي علي من البصرة إلى مصر- عبر الخليج العربي ومعه خمسة عشر- سفينة. كان قد عمل سيدي علي على تجنب الاصطدام بالسفن البرتغالية، وتجاوز مضيق هرمز بسلام، وكان سيره بمحاذات الشواطئ العمانية في طوابير منظمة، وعند وصوله سواحل خور فكان ألتقى بالأسطول البرتغالي بقيادة فرناندو دي نورونها (Fernando de Noronha) العائد من ظفار حيث ذهب إلى هناك لإخضاع الأهالي الثائرين على البرتغاليين، وكان ذلك في ٩ رمضان ٩٦١/ ١٠ أغسطس ١٥٥٤م. كان عدد السفن البرتغالية ٢٥ سفينة، وأجبرت السفن البرتغالية على التراجع إلى خليج[٨٩] ليما[٩٠]، ومنها فرت إلى مسقط من أجمل حمايتها وتحذير أهلها من احتمالية هجوم العثمانيين عليها، ويذكر سيدي علي في كتابه "مرآة الزمان"[٩١] أن "هذا اللقاء كان لقاء ناجحًا. وتزود الأسطول العثماني بالماء من خور فكان، ثم تابع سيره.

وكان الأسطول البرتغالي قد سبقه إلى مسقط لتقوية حاميتها، ومن ثم وزع القائد البرتغالي فرناندو دي نورونها سفنه لمراقبة قافلة الأسطول العثماني، وكان الاصطدام لابد منه، فحدثت المواجهة الثانية، عندما التقى الخصمان قبالة شاطئ العذيبة[٩٢] في صباح يوم ١٥ أغسطس[٩٣]، وكانت الهزيمة للعثمانيين، حيث تفاجأ اسطولهم بالأسطول البرتغالي بسبب إطلاق المدافع الكثيفة. ودفعت الرياح المعاكسة أسطولهم نحو سواحل بلوشيستان فحاول الإفلات من المعركة، وتحطمت من أسطوله ست سفن. وقد وصف سيدي علي هذه الحادثة في كتابه أيضًا أنها من "أسوى المعارك". وبعد أن تزود بالمؤن من ميناء شهبار[٩٤]، عاد بعد أن تجمعت سفنه الباقية. وعندما كان قبالة رأس الحد[٩٥]، تعرضت سفنه لعواصف شديدة جذبته نحو ساحل الهند، وتجمعت سفنه في سورات إحدى الموانئ المهمة لمملكة كجرات الإسلامية، وبعد ذلك اشتبك مع البرتغاليين هناك، وفقد معظم سفنه، ثم لجأ إلى ملك كجرات ومعه من بحارته (٥٠) بحارًا عادوا إلى إسطنبول برًا، وذلك بعد ثلاث سنوات من خروجهم من البصرة، فوصلوا إسطنبول عام ١٥٥٧م[٩٦]، وبعدها اختفت المواجهات العثمانيين للبرتغاليين في المحيط الهندي حتى عام ١٥٨١م.

٧- الحملة العثمانية الثانية على مسقط عام ١٥٨١م

لم تشر المصادر إلى أن العثمانيين عادوا إلى السواحل العمانية بعد عام ١٥٥٤م، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى عجزهم من فرض قوتهم على السواحل العمانية، وأكتفوا بحماية البحر الأحمر من دخول البرتغاليين فيه والذين كانوا يهددون جدة، وربّما الأماكن المقدسة. غير أنه وردت إشارة في كتاب "كوتو Couto المعنون " دا آسيا Da Asia" تفيد أن البرتغاليين اعترضوا في عام ١٥٦٥م أسطولاً عثمانيًا في السواحل اليمنية وعليه أكثر من ٤٠٠ محاربا، وفي السنتين التاليتين ١٥٦٦ و ١٥٦٧م اعترض الأسطول البرتغالي بعض السفن العثمانية المتجهة إلى البحر الأحمر[٩٧]، ويبدو أنها كانت قادمة من الموانئ الهندية، ونستبعد أن هذه السفن قدمت من الخليج العربي.

وقد تأثرت البحرية العثمانية بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦م، وأن خليفته سليم الثاني (١٥٦٦م – ١٥٧٤م) لم يكن مؤهلاً لمواصلة سياسة والده التوسعية ولا المحافظة على مكتسباته أمام تعقد الأوضاع الداخلية، وضغط الأحداث الخارجية وذلك لصغر سنه[٩٨]. كما أن الدولة العثمانية دخلت في حروب كثيرة مع الدولة الصفوية، عندما اعتلى قيادة بلاد فارس الشاه عباس الكبير (١٥٧٨م – ١٦٢٩م). أضف إلى ذلك أنها ركزت حروبها في أوروبا والبحر الأبيض المتوسط، ولهذا فإن اهتمام العثمانيين بالمشرق العربي قد ضعف في مقابل اهتمام السلاطين بشؤون أوروبا. كما أن التجارة بين الهند والبحر الأحمر، وبين الهند والخليج العربي ازدهرت خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ويذكر الرحالة الإنجليزي ج. الدريد الذي زار البصرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر- أن "سفنا مختلفة تصل شهريا إلى ميناء البصرة قادمة من هرمز وهي محملة بجميع أنواع البضائع الهندية"[٩٩]. وفي الحقيقة، يعود ذلك الازدهار إلى التفاهم الذي تم بين بيليري بك البصرة وحالكم هرمز الذين رأوا أن الكساد الاقتصادي وسلبية قادة

البرتغاليين لم تفيد التجارة في شيء، فكثر التهريب بين السفن والموانئ المحظورة، حيث كان التجار يوهمون البرتغاليين أن وجهاتهم تختلف عما طلبوا التصريح له، فمثلاً تسمح للسفن التجارية أن تتجه إلى بلاد فارس والبحرين وموانئ الحبشة وغيرها ويمنع من اتجاهها إلى البصرة والموانئ العثمانية في البحر الأحمر.

ومن الحملات العثمانية التي أشار إليها بافقيه أنه في رجب ٩٨٤هـ/سبتمبر ١٥٧٦م أن أسطولاً عثمانيًا خرج من اليمن وهاجم السواحل العمانية وتمكن من حصوله على غنائم، فيقول في أحداث عام ٩٨٤هـ "أنه في يوم الأثنين الأول من شهر رجب [٢٤ سبتمبر ١٥٧٦م] وصل إلى بندر الشحر غرابان تركيان قبطانهما اسمه سنان فيما نحو ٢٠٠ من الجنود ومثلهم من البحارة والهنود قاصدين رأس الحد للإفرنج وأخذوا سفينة من نوع برشة مشحونة بالأموال كانت تقصد هرمز، وأخذوا سفينة أخرى من نوع غليون من البندر، وساعدهم الهنود ، ورجعوا غانمين سالمين. وكان وصولهم إلى الشحر يوم ثلاثة وعشرين من شهر شعبان [١٦ نوفمبر ١٥٧٦م] وساروا إلى المكلا، واقتسموا الغنائم ومكثوا أيامًا ثم ساروا إلى عدن".[١٠٠]

وقد ارجع الباحث حسن صالح شهاب هذه الغزوة إلى حملة علي بك شلبي الذي خرج من اليمن إلى مسقط وأحتلها، والحقيقة إن هذه المحاولة كانت عبارة عن جهود ذاتية من المجاهدين قصد بها أرباك البرتغاليين. ومثل هذه الغزوات كثيرة سواء من العثمانيين أو غيرهم من القوى الوطنية العربية[١٠١]، حيث ذكرت بعض الرسائل البرتغالية تفيد أن البرتغاليين استولوا على عدد من مراكب القاهرة، وكانت هذه السفن تقوم بتهريب السلع من السواحل الهندية[١٠٢]، ولكن هذا الادعاء غير صائب، فإن هذه المراكب مسلحة بالرجال والعتاد لحماية سفنهم ولمواجهة البرتغاليين.

في فبراير ١٥٨٠م مات ملك البرتغال الكاردينال هنري، وأوصى أن يؤول عرش البرتغال بعد موته إلى الملك فيليب الثاني (ت.١٦٠٠م) ملك إسبانيا، فاعترضت عائلته على تلك الوصية، وتزعم ذلك دون أنطونيو. لهذا سارع ملك إسبانيا بأرسال جيشٍ كبيرٍ تمكن من دخول العاصمة لشبونة في ١٦ إبريل ١٥٨١م، وبذلك سقطت الإمبراطورية البرتغالية وأصبحت مستعمرة إسبانية. هذا الأمر تناقلته الأخبار وأثر على مستعمراتها في خارج أوروبا. استغل العثمانيون هذا الوضع، وكلفوا قائد الأسطول العثماني في اليمن علي بك شلبي بتحرير مسقط، وأن يحررها من البرتغاليين، معتقدين أن معنويات قادة الأسطول البرتغالي في الهند وهرمز قد انهارت، وضعفت إرادتهم. وكان علي بك شلبي قد وجه مغامراته إلى شرق إفريقيا، وكسب هنالك مكاسب سياسية وعسكرية للدولة العثمانية، كما أسس قواعد عديدة في الموانئ اليمنية أهمها مدينة "مخا" الواقعة على باب المندب.

وذكرت المصادر البرتغالية حملة علي بك شلبي من دون تفاصيل، وكانت عام ١٥٨١م، ويذكر مايلز أن علي بك شلبي خرج من عدن[١٠٣] في أوائل شهر شعبان ٩٨٩هـ/ أواخر شهر أغسطس ١٥٨١م وأن وصوله مسقط كان في يوم الجمعة ٢٣ شعبان ٩٨٩هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٥٨١م وبمعيته أربع سفن[١٠٤]. وقد تفاجأ البرتغاليون بهذه الحملة، وكانوا يعرفون تحركات علي بك شلبي الذي كان موجهًا إلى السواحل الإفريقية الشرقية، ولهذا لم يكونوا يتوقعون هجومهم، خاصة أن آخر هجوم للعثمانيين على مسقط كان قبل ثلاثين سنة.

تلقى حاكم اليمن العثماني[١٠٥]، دعوة من القبائل العمانية المحيطة بمسقط مفيدة أن المدينة تكاد تخلو من وسائل الدفاع، مغرية إياه بالغنائم الكثيرة. فأعد وجهز عسكرية لاقتحام مسقط[١٠٦]. وكان قادة البرتغال في المنطقة يعرفون ذلك الضعف، وإمكانية تعرض مسقط للهجوم المباغت من قبل العثمانيين، لهذا تقدم هؤلاء القادة بخطة إلى الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا والبرتغال لبناء قلعتين في مسقط، غير أن موافقة الملك الإسباني جاءت متأخرة كثيرة. ولم تبنى القلعتان إلا بسنوات بعد ذلك، الجلالي في الجهة الشرقية عام ١٥٨٧ والميراني في الجهة الغربية من مدخل ميناء مسق وذلك في عام ١٥٨٨م.

نجح علي بك شلبي في الوصول إلى مسقط في يوم ٢٣ شعبان/٢٢ سبتمبر بسلام وبدون حوادث تذكر غير أن سفينة من سفنه غرقت بسبب عاصفة مفاجئة. وقد أرسى سفنه في خليج سداب، ونزل وبمعيته (١٥٠) من رجاله. كانت خطته أن تتحرك قوته البحرية إلى مسقط وأوصاهم بأن لا يظهروا في ميناء مسقط قبل الفجر، وأن يبدؤوا بإطلاق النار على المدينة، وأن يتظاهروا بإنزال الجنود في مكان ما من شواطئ مسقط حتى يوهموا البرتغاليين بذلك الإنزال. أما هو فقد تسلل بمن معه ومن العمانيين إلى مسقط، وقسم أتباعه إلى ثلاثة مجموعات، كل مجموعة ترابط أمام بوابة من بوابات[١٠٧]. مسقط[١٠٨]. تحرك علي بك شلبي من سداب إلى مسقط وفاجأ الحامية العسكرية في قلعة مسقط بالهجوم، فاستسلمت المدينة له. أما حاميتها التي لم يزد عددها عن (٥٠٠) فرد، منهم (٧٠) فردًا ممَنْ يستطيعون حمل السلاح، فقد هربوا منها، واتخذوا طريق البر والبحر إلى مدينة بركاء،[١٠٩] واستعصموا عند حاكمها الشيخ قطن[١١٠]. وقد ذكر دميجو دو كوتر أن العثمانيين احرقوا كنيسة بمسقط، وتخلصوا من الكلاب والقطط والخنازير التي كانت بمسقط في منازل الأثرياء[١١١]، وقد ساعدهم دهماء المدينة وعمالها على ذلك.

ولم يمكث علي بك شلبي في مسقط طويلا فقد حزم غنائمه، بعد أن نهب ممتلكات البرتغاليين، واستولى على ثلاث سفن عمانية من مدينة مطرح ليحمل عليها ما غنمه من المال والأشياء الثمينة[١١٢]، ورحل عائدا إلى مخا من دون أن ينوب أحدًا عنه من العمانيين – كما فعل بيري علي ريس - أو يترك عليها حامية من قبله. خرج علي بك فجأة من مسقط كما دخلها. ويمكن أن نعلل ذلك بأنه كان على علم بأن البرتغاليين لن يتركوه يستقر بمسقط دون محاولة استردادها، أو أنه وردت إليه معلومات تفيد أن حاكم هرمز دون جونزالا دي منزيس Dom Gonzala De menezes المسئول عن الحامية العسكرية في مسقط، قد سير على عجل حملة بقيادة لويس دي الميدا إلى مسقط لاعتراض سفن علي بك شلبي وتدميرها، وفي طريق الحملة البرتغالية إلى

مسقط، عُلم بأن علي بك قد ترك مسقط، وأنها خالية من العثمانيين[١١٣]، ولم يشأ لويس أن يتعقب علي بك جنوبا، فقرر أن يتجه نحو ساحل بلوشستان ظنًا منه أن علي بك سيتجه نحوها، ولهذا عند وصوله علم بخلاف ظنه، فأكتفى بسلب ونهب السكان.[١١٤]

وهكذا، تعتبر حملة بير علي بك على مسقط من المحاولات الأخيرة على مسقط خلال القرن السادس عشر الميلادي. وظل علي بك شلبي يقوم بمغامرات عديدة في شرق إفريقيا حتى قبض عليه بعد تسع سنوات من استيلائه على مسقط، وأخذ إلى لشبونه، واجبر على التنصر للبقاء على قيد الحياة حتى مات هناك.

خَاتِمَةٌ

إن المواجهات العثمانية البرتغالية على السواحل العمانية التي أبرزتها هذه الدراسة توصلت إلى نتائج مرضية وفق الوثائق المتاحة، وذلك بأن هذه الوثائق إما أن تكون باللغة العثمانية أو باللغة البرتغالية، وهذه الوثائق تحتاج إلى مصادر محايدة محلية بعمان أو اليمن أو غيرها من المصادر مثل مصادر فارسية أو هندية، ولكن للأسف فإن كل هذه المصادر شحيحة، ولا تتيح للباحث أن ينقد مصداقية هذا المصدر أو ذك.

نتائج الدراسة

- كشفت هذه الدراسة أن أهداف المواجهة بين العثمانيين والبرتغاليين كان اقتصاديا في المقام الأول وليس مطلبًا سياسيًا أو دينيًا حسب ما وضحته الدراسة من سلوك قادة الحملات.
- أوضحت هذه الدراسة أن احتلال مسقط عام ١٥٥٢ و١٥٨١م من قبل العثمانيين لم يكن له أهداف سياسية محدودة، بل مغامرات من دون توجيه معين، ولهذا السبب جعل الكثيرون من الباحثين يلمزونها بالطمع والجشع وعدم المسئولية وهذا ما أكدته الوثائق الدولة العثمانية التي عمدت إلى معاقبة قادتها الذين تجاوزوا حدود المسئولية.
- توصلت هذه الدراسة إلى أن قادة العثمانيين لم يهتموا بسكان مسقط، بل أن معاملتهم لم تكن حميدة، ولأنهم لم يشاركونهم في الغنائم ولا يسندوا عليهم مهمة إدارية في مسقط أثناء وجودهم وبعد مغادرتهم.
- بينت هذه الدراسة أن العثمانيين كانوا يعانون من ضعف في قوتهم البحرية، ولم ينشؤوا قواعد عسكرية في مسقط الأمر الذي من المؤكد أن يقوي من قوتهم ومكانهم السياسية.
- بينت هذه الدراسة أن البرتغاليين كانوا نشطين وأن كثير من القوى المحلية متعاونة معها وذلك لأجل تصدير انتاجهم الزراعي واستزاد السلع الغذائية والنسيجية، مما سهل انسياب التجارة بين الهند ومسقط، وإن كانت على نطاق محدود.
- كشفت هذه الدراسة أن العثمانيين لم يكن لهم دراية بالأجواء المناخية ومواعيد الرياح والطرق البحرية التي تحميهم من مخاطر العواصف.
- على الرغم من أن الحملات البرتغالية لم تحقق نتائج ملموسة، غير أن هذه الدراسة أكدت أن حملات العثمانيين اضعفت النفوذ البرتغالي وشغلته في جبهات مختلفة في الخليج واليمن والسواحل الهندية وشرق أفريقيا وأصاب السفن البرتغالي الارتباك بأن يقاتل في جبهات متعددة، وإذا كان هذه الأسطول مهيمن في النصف الأول من القرن السادس عشر، فإن النصف الثاني من القرن كان البرتغاليون في محل دفاع عن ذاته.

الملاحق

الملحق (١) مضيق هرمز

الملحق (٢) مضيق باب المندب واليمن

الملحق (٣) خارطة سلطنة عمان

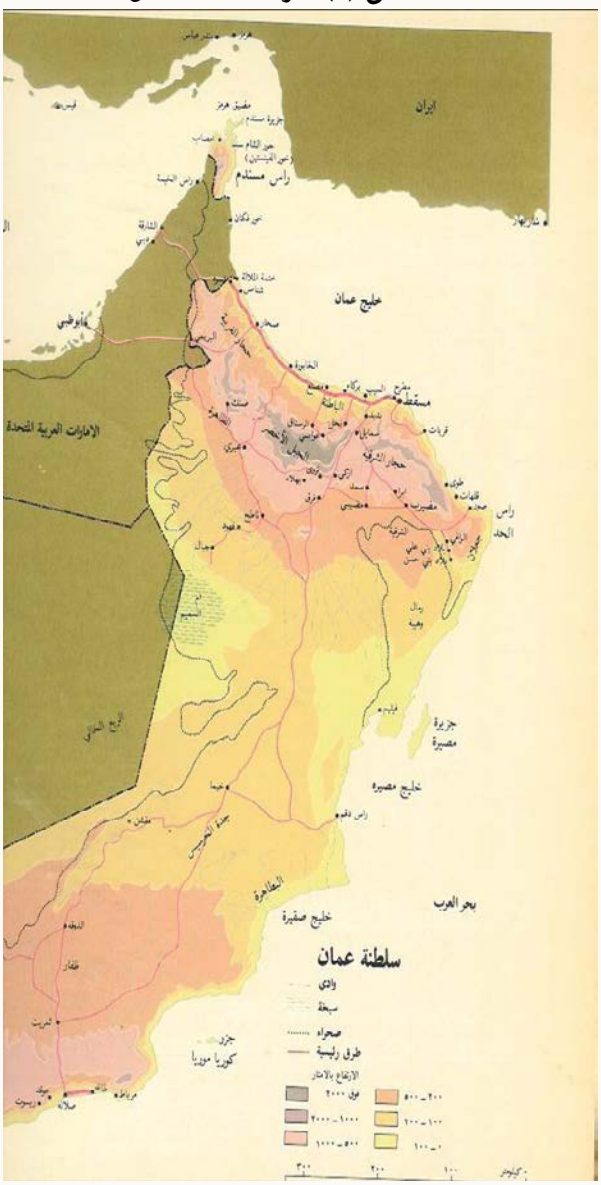

الهَوامِشُ:

(١) السالمي، عبد الله بن حميد. **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**. مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب" ٢٠٠٠م، ج١، ص: ٣٨٦.

(٢) الهاشمي، سعيد بن محمد. **دراسات في التاريخ العماني**. النادي الثقافي، مسقط: ٢٠١١م، ص٢١٠ وما بعدها.

(٣) نسب اليعاربة خطاءً إلى النباهنة، وإلى يعرب بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان بالذات، والحقيقة أن هذا الرأي للشيخ سالم بن حمود السيابي في كتابه إسعاف الأعيان، وقد عنونه بقوله "نسب آل يعرب في نصر بن زهران" وهذا العنوان هو نفسه مع الشيخ نور الدين السالمي في كتابه **تحفة الأعيان**، ج٢، ص:٣ وقد سبقهما الشاعر ابن شوال في ديوانه "الكيذاوي" وذكر أن نسب اليعاربة في نصر بن زهران. وأن نسب النباهنة في العتك، والعتك ونصر يلتقين في الأزد بن الغوث حيث أن العتيك في مازن بن الأزد، ونصر بن زهران في نصر بن الأزد فكيف يقال أن اليعاربة ينتمون إلى ملوك اليعاربة، وحيث أن نصر بن زهران هو أخ لعبرة بن زهران الذي ينتمي إليه العبريون.

(٤) السيابي، سالم بن حمود. **إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان**. مشورات المكتب الإسلامي، دمشق: ١٩٦٥م، ص: ١١٩.

(٥) نسب ابن هاشم راشد بن خلف بن محمد في قصيدته اللامية وشرحها عام (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) اليعاربة، حيث قال: "أعني بالسلطان من آل يعرب: هو محمد بن بلعرب بن سلطان بن أبي حمير بن مزاحم بن يعرب بن محمد بن يعرب بن مالك بن محمد بن يعرب بن مالك، انظر: البطاشي، سيف بن حمود. **إتحاف الأعيان**. ج٢، ط١، مسقط: ١٩٩٤م، ص: ١٥٨.

(٦) قاسم، جمال زكريا. **الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي**. ج١، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، رأس الخيمة: ١٩٨٧م، ص: ٢٧.

(٧) حنظل، فالح. **العرب والبرتغال في التاريخ**. ط١، المجمع الثقافي أبو ظبي: ١٩٩٧م، ص: ٩١.

(٨) عوض، عبد العزيز. **دراسات في تاريخ الخليج الحديث**. ط١، دار الجيل، بيروت:١٩٩١م، ص: ١١.

(٩) حنظل، المرجع السابق، ص: ١١١.

(١٠) حنظل، المرجع السابق، ص:١٢٥.

(١١) الحملة الأوليتين كانتا بقادة فاسكو داجاما الأولى (١٤٩٨م – ١٤٩٩م)، والثانية (١٥٠٢م – ١٥٠٣م)، انظر: الشيخ، رأفت غنيمي. "**البرتغاليون بين رأس الخيمة والهند أوائل القرن السادس عشر**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ٢٣ (يوليو ١٩٩٣م)، ص: ١٤٢ – ١٤٣.

(١٢) الثقفي، يوسف بن علي. "**موقف المماليك ودول الخليج من الاستعمار البرتغالي**". ج١، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، رأس الخيمة: ١٩٨٧م، ص:١٤٧.

(١٣) لمزيد من المعلومات عن الأهداف الأساسية للكشوف والبرتغالية، انظر: كاظم، بشير حمود. "**حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها**". ندوة رأس الخيمة التاريخية، رأس الخيمة: ١٩٨٧م، ج١، ص: ١٢١- ١٢.

(١٤) الثقفي، المرجع السابق، ص: ١٤٨.

(١٥) التكريتي، سليم طه. **المقاومة العربية في الخليج العربي**. وزارة الثقافة والأعلم العراقية، بغداد: ١٩٨٢م، ص: ٤١.

(١٦) ويلسن، أرنولد. **تاريخ الخليج**. ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٨١م، ص: ٢٠٥.

(١٧) هرمز جزيرة صغيرة بيضاوية الشكل تقع في مدخل الخليج العربي ويسمى المدخل بمضيق هرمز نسبة لهذه الجزيرة، طولها حوالي ٩كم وعرضها حوالي ٥، ٨ كم وتبعد عن الساحل الفارسي بحوالي ١٨ كم.

(١٨) الخصوصي، بدر الدين. **دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**.ج١، ط٢، ذات السلاسل، الكويت: ١٩٨٤م، ص:١٦ – ١٧.

(١٩) ويلسن، المرجع السابق، ص: ٢٠٨.

(٢٠) والذي قال عنه أبن إياس "كان أميراً جليل القدر معظمًا مبجلاً في سعة من المال مالكي المذهب سيد عربان المشرق على الإطلاق، انظر: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. تحقيق محمد مصطفى، ج٥، ط٢، فرائز شتاينر فيسبادن، القاهرة: ١٩٦١م ص: ٤٣١.

(٢١) نعتقد أن بني جابر وهي قبيلة عمانية يقطنون في أودية قلهات وأودية سمائل، ومنهم في فلج القبائل بصحار، ليس لهذه القبيلة علاقة بني جبر في منطقة الأحساء، ولا نظن أن البوكيرك يعني بني جبر.

(٢٢) لمزيد من المعلومات حول التوسع الصفوي في العراق، انظر: الجواهري، عماد أحمد. "**العراق والتوسع الصفوي: ١٥٠٢م – ١٥٣٠م**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٢٠)، (أكتوبر ١٩٧٩م)، ص:٦٥ -٨٣.

(٢٣) **السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك**، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، ط ١، المجمع الثقفي، أبوظبي:٢٠٠٠م، ج٢، ص:٦٣٩ – ٦٤٢ ؛ قاسم، تاريخ الخليج. ج١، ص: ٦٧.

(٢٤) العقاد، صلاح. **التيارات السياسية في الخليج العربي**. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٨٣م، ص: ١١.

(٢٥) العقاد، المرجع السابق، ص: ١٧.

(٢٦) حنظل، المرجع السابق، ص:٢٣٩ – ٢٤٠.

(٢٧) عن أهمية التجارة البحرية بين المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي، انظر: زيادة، نقولا. "**تطور الطرق البرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٤)، (أكتوبر ١٩٧٥م)، ص: ٦٩ – ٩٤.

(٢٨) الكيالي، محمد عارف. "**الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج في القرنين ١٦ و١٧ الميلاديين**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ١٤ (يناير ١٩٨٦م، ص ١٠٦ وما بعدها.

(٢٩) عرف هذا التصريح بنظام الرخصة الملاحية (Cartaz)، انظر: آل خليفة. خالد. "**التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي في القرن السادس عسر**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد (١٩)، (يوليو ١٩٩١م)، ص: ١٠٤.

(٣٠) الملباري، أحمد زين الدين المعبري. **تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين**. تحقيق: محمد سعيد الطريحي، ج١، مؤسسة الوفاء، بيروت: ١٩٨٥م، ص: ٢٤٧.

(٣١) بانيكار. **آسيا والسيطرة الغربية**. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة: ١٩٦٢، ص: ٥٢.

(٣٢) قاسم، **تاريخ الخليج**، ج١، ص: ٤٣.

(٣٣) لمزيد من المعلومات عن التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي، انظر: الخليفة، علي. "**التأثير البرتغالي على اقتصاد منطقة الخليج العربي في القرن السادس عشر**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ١٩، (يوليو ١٩٩١م)، ص٩٤ – ١١٠.

(٣٤) تُعَدّ مملكة كجرات من أهم الممالك الإسلامية على الساحل الهندي الغربي، وهي تحتل أقصى شمال هذا الساحل. ومن أهم موانئ هذه المملكة كمبايا وديو وسورات، وتعتبر أحمد أباد عاصمة هذه المملكة. وتحده هذه السلطنة سلطات بلاد ملبار والتي تعرف في وقتنا الحاضر كيرلا.

(٣٥) الساداتي، أحمد محمود. **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**. القاهرة: ١٩٥٧م، ج١، ص: ١٨٢ – ١٨٣.

(٣٦) الملباري المصدر السابق، ص: ٢٥٠

(٣٧) عن أهمية التجارة بين مملكة كجرات والبلاد العربية، انظر: مهنتا، ماكراند وشيرين. "**تجار كجرات والتجار العرب بعض الملاحظات المبنية على المصادر المعاصرة (٩٤٢م - ١٥٠٠م)**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ٢٣ (يوليو ١٩٩٣م)، ص١٨٠ – ١٩٣؛ الندوي، أبو ظفر. **أسطول كجرات ١، ٢ و٣**. مجلة ثقافة الهند، المجلد ١٦ و ١٧ العدد الرابع (أكتوبر ١٩٦٥م؛ والعددين الأول والثالث (يناير ويوليو ١٩٦٦م).

(٣٨) قاسم، **تاريخ الخليج**، ص: ٤٧.

(٣٩) الملباري، المصدر السابق، ص: ٢٥٣.

(٤٠) حنظل، المرجع السابق، ص١٤٧-٢٤٨.

(٤١) احتل البرتغاليون هذه الجزيرة عام (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) انظر: الثقفي، المرجع السابق، ١٥٩، الهامش رقم (٢٧).

(٤٢) كمران جزيرة كبيرة مشهورة في البحر الأحمر مقابلة للساحل اليمني، تبعد عن الساحل بسبعة كيلومترات تقريبًا، انظر: لقمان، حمزة علي. **تاريخ الجزر اليمنية**. بيروت: ١٩٧٢م.

(٤٣) يبدو أن قانصوه اشتغل بحماية حدوده الشامية من العثمانيين الذين كانوا يهددون مملكته، وسقط قتيلاً من حصانه بالسكة القلبية في (رجب ٩٢٢هـ/ أغسطس ١٥١٦م) في معركة مع العثمانيين في وادي "مرج دابق" شمالي حلب، انظر: حنظل، المرجع السابق، ص: ٢٦١.

(٤٤) كان الأمير مرجان حاكمًا لعدن من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داوود الطاهري (ت. ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، واستمر في إمارته حتى وفاته عام (٩٢٧هـ/١٥٢١م)، انظر: سالم، السيد مصطفي. **الفتح العثماني الأول لليمن: (١٥٣٨- ١٦٣٥)**. ط٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة: ١٩٢٧م، ص٢١.

(٤٥) حنظل، المرجع السابق، ص٢٦٣.

(٤٦) احتل الصفويون بغداد أواخر عام ١٥٠٨م بد هزيمة مملكة الآق قويونلي انظر: لونكريك، هيمسلي. **أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**. ترجمة جعفر الخياط، ط ٦، مكتبة اليقظة الحديثة، بغداد،:١٩٨٥م، ص:٣٠ – ٣١.

(٤٧) لمعرفة المزيد عن الخلاف المملوكي – العثماني، انظر: الخوري، إبراهيم. "**توسع الدولة العثماني في الخليج العربي ونتائجها السياسية في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**". ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية، رأس الخيمة: ١٩٨٨م، ص:٢٠٤ – ٢٠٦.

(٤٨) أثناء وجود السلطان سليم الأول في مصر أمر ببناء ترسانة بحرية في ميناء السويس، انظر: قاسم، **تاريخ الخليج**، ج١، ص: ٧٧.

(٤٩) ايفانوف، نقولاي. **الفتح العثماني للأقطار العربية: ١٥١٦م – ١٥٧٤م**. ترجمة يوسف عطاء الله، دار الفارابي، بيروت: ١٩٨٨م، ص٦٠ وما بعدها.

(٥٠) احتل العثمانيون عدن بعد أن شنقوا سلطانها عامر بن داؤود بن طاهر الطاهري في ربيع الأول ٩٤٥هـ/ أغسطس ١٥٣٨م، انظر: بافقيه. محمد بن عمر الطيب. **تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر**. تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، ط ١، عالم الكتب، بيروت: ١٩٩٩، ص: ٢٥٤؛ صالحية، محمد عيسى. "**التدخل العثماني في اليمن: ٩٤٥هـ/١٥٣٩م – ٩٦٢هـ/١٥٥٥م**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٢٤ (أكتوبر ١٩٨٠م)، ص:٩٧.

(٥١) ريان، محمد رجائي. "**موقف الدولة العثمانية من النفوذ البرتغالي في الخليج العربي**". بحث ضمن ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي: ١٢٥٨ – ١٦٥٠م، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين:١٩٩٠م، ص: ٥٥٣ – ٥٥٦.

(52) Stripling، G.W. The Ottoman Turks and the Arabs, Urbana:1942, p. 93.

(٥٣) الشيخ علي بن سليمان هو أحد شيوخ القبائل المجاورة لعدن، استولى على عدن عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م، ونجح بيري علي في حملته الأولى إلى اليمن في استرجاع عدن وقتل الطوالفي، انظر: شهاب، المرجع السابق، ص: ١٠٨.

(٥٤) صالحية، المرجع السابق، ص:١٠٨ – ١٠٩.

Serjeant, R. B. The Portuguese of the South Arabian Coast. Beirut:1974, P.20.

(٥٥) ابن مظهر، عيسى بن لطف الله (ت. ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م). روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح. مخطوط بمعهد المخطوطات العربية القاهرة تحت رقم ٢٦٢/ ت تاريخ، ورقة ٣٤؛ حنظل، المرجع السابق، ص: ٣٦٦.

(٥٦) صالحية، المرجع السابق، ص: ١١٣.

(٥٧) هو الشيخ راشد بن مغامس بن صقر بن يحيى بن محمد بن مانع بن يحيى بن مانع الكبير بن شبيب بن فضل وعرفوا بآل شبيب أو بالفضلي، انظر: شجرة النسب في الحميدان، عبد اللطيف الناصر. **إمارة آل شبيب في شرقي جزيرة العرب**. الرياض: ١٩٩٧م، ص:١٢٧.

(٥٨) الحميدان، عبد اللطيف الناصر. **إمارة آل شبيب في شرقي جزيرة العرب**. الرياض: ١٩٩٧م، ص: ٤٦ – ٤٧.

(٥٩) الحميدان، المرجع السابق، ص: ٦٥ -٦٦.

(٦٠) علي، علي شاكر. "**التنظيمات الإدارية العثمانية في أيالة البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٥ (يوليو ١٩٨٣م)، ص: ١٢٦.

(٦١) جاء في كتاب صالح أوزبران أن فرمان تقليد الشيخ راشد بن مغامس لهذه المهمة في كتاب تاريخ باشوي. ج٥، اسطنبول: ١٨٦٦م، ص: ٢٠٧، انظر: اوزبران، المرجع السابق، ص: ٣٠.

(٦٢) الحميدان، المرجع السابق، ص: ٨٣ – ٨٥.

(٦٣) الحمدان، المرجع السابق، ص: ٩٣.

(٦٤) علي، التنظيمات، ص: ١٢٧.

(٦٥) الجواهري، عماد أحمد. "**الدور التاريخي للبصرة علي الخليج العربي: ١٥٠٠م – ١٦٠٠**". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد ١٣، (يناير ١٩٧٨م)، ص: ٨٧.

(٦٦) أوزبران، أوزبران، صالح. "**الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي: ١٥٣٤ – ١٥٨١م**". ترجمة: عبد الجبار ناجي، ط١، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة: البصرة: ١٩٧٩م، ص: ٣٠ – ٣١.

(٦٧) كوتو، المصدر السابق، مجلد ٦، العدد ٩، ص: ٢٤٣، نقلاً عن: أوزبران، المرجع السابق، ص: ٤١.

(٦٨) لقد حدد السلطان العثماني سليمان القانوني مهمة بيري علي في رسالة مؤرخة في ١٨ ذي الحجة/٢٥ نوفمبر ١٥٥٢ موجهة إلى بيلربي البصرة قباد باشا، انظر: أوزبران، المرج السابق، ص:٤٤.

(٦٩) أوزبران، المرجع السابق، ص:٤٤.

(٧٠) أوزبران، المرجع السابق، ص:٤٣.

(٧١) الصيرفي، نوال حمزة يوسف. "**النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**". دارة الملك عبد العزيز، الرياض: ١٩٨٣م، ص:١٤٦.

(٧٢) هو بيري محيي الدين رئيس، ملاح عثماني ورسام للخرائط، قام برحلات عديدة تحت إشراف عمه كمال رئيس (ت.١٥١١م) والذي برز ذلك تحت أمرة خير الدين بربروسيا، ونصب بيري علي رئيس قابودان (قبطان) لمصر، انظر: **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الفكر، بيروت: د.ت، ص: ٤٠٥ مادة: بيري محيي الدين رئيس.

(٧٣) بافقيه، محمد بن عمر الطيب الشحري. **تاريخ حوادث السنين ووفيات العلماء العاملين والسادة المربين والأولياء الصالحين**. مخطوط، ص: ٨٨ ب، نقلاً عن: حسن صالح شهاب، "**البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي**". ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية، رأس الخيمة: ١٩٨٨م، ص: ١٠٨.

(٧٤) أوزبران، المرج السابق، الملحق رقم (١)، ص: ٦١-٧٥.

(٧٥) طهبوب، فائق حمدي. "**الصراع العثماني – البرتغالي في منطقة الخليج العربي خلال فترتي حكم السلطانيين سليم الأول وسليمان القانون**". بحث نشر ضمن ندوة مكانة الخليج في التاريخ الإسلامي، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين: ١٩٩٠م، ص: ٦٠٧.

(٧٦) حنظل، المرجع السابق، ص: ٣٨٩.

(٧٧) طهبوب، المرجع السابق، ص: ٦٠٧.

(٧٨) أوزيران، المرجع السابق، ص: ٧٨.

(٧٩) الغرابية. عبد الكريم. **مقدمة في تاريخ العرب الحديث:١٥٠٠ – ١٩١٨م**. دمشق: ١٩٦٠م، ص: ١٢ – ١٣.

(٨٠) القيسي، عبد الوهاب عباس. "**المجابهة البرتغالية – العثمانية في المياه العربية**". بحث نشر ضمن ندوة رأس الخيمة، ١٩٨٧م، ج١، ص: ١٧٠.

(٨١) ذكر حاكم هرمز الفار ودي نورونها في رسالته إلى حاكم جوا فيرناو فارتو والمؤرخة في ٣٠ أكتوبر ١٥٥٢م أن بيري بك ترك في مسقط رجلين من أتباع المسيح أحدهما روسي والآخر إيطالي، وكان هذين الرجلين مصدر المعلومات في أحداث مسقط، انظر: أوزبران المرجع السابق، الملحق رقم ٢، ص: ٧٨.

(٨٢) أوزبران، المرجع السابق، ص: ٤٦.

(٨٣) ماهر، سعاد. **البحرية في مصر الإسلامية**. ص: ١٤٠.

(٨٤) القيسي، المرجع السابق، ص:١٧١.

(٨٥) أوزبران، المرجع السابق، ص: ٤٨.

(٨٦) علي شلبي كان من ضباط القائد خير الدين بار بروسا في البحر الأبيض المتوسط.

(٨٧) مايلز، س. ي. **الخليج بلدانه وقبائله**. ترجمة محمد أمين عبد الله، ط٤، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٩٠م، ص: ١٩٨.

(٨٨) يشكك لونكريك في كتابه. "**أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**" في شخصية مصطفى باشا، وذلك لعدم وجود أسمه على قائمة ولاة البصرة، ولكنه يستثني بقوله، أن القائمة غير كاملة في ما يبدو له، انظر: الكتاب المذكور، ترجمة جعفر الخياط، مكتبة اليقظة العربية، ط٦ بغداد: ١٩٨٥م، ص: ٤٨.

(٨٩) أوزبران، المرجع السابق، ٤٩.

(٩٠) تقع ليما شمالي خور فكان في منطقة مسندم صالح للاحتماء من سفن الأعداء لا يعرفه إلا الخبير.

(٩١) طبع كتاب مرآة الزمان في إسطنبول عام ١٣١٣هـ.

(٩٢) يقع شاطئ العذيبة بين السيب والقرم بسلطنة عمان.

(٩٣) مايلز المصدر السابق، ص: ٢٠٠ – ٢٠١.

(٩٤) الصيرفي، المرجع السابق، ص: ١٥٠.

(٩٥) لقد ذكرنا أن العواصف تفاجأ السفن عند رأس الحد، وربما يفهم القارئ أن تلك المعلومات عبارة عن ذرائع يتعلل بها المهزومين، ولكن الحقائق تؤكد ذلك، وقد سبق لأحمد بن ماجد أنه حذر في كتابه "الفوائد في أصول علم البحر والقواد والفصول" السفن والنواخذا من ذلك لأنه ذكر أن عند رأس الحد ملتقى الأرياح والعواصف.

(٩٦) العزاوي، المرجع السابق، ج٤، ص: ٨٠ – ٨١؛ حنظل، المرجع السابق، ص: ٣٩٢.

(٩٧) اوزبران، المرجع السابق، ص:٥٦.

(٩٨) طقوش، محمد سهيل. **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**. ط١، دار بيروت المحروسة، بيروت:١٩٩٥م، ص: ٢٢٥.

(٩٩) القيسي، المرجع السابق، ص: ١٧٤.

(١٠٠) بافقيه، المصدر السابق، ص: ١٠٠ ب، نقلاً عن: حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص: ١١٠.

(١٠١) أبا حسين، علي. "**الجهاد البحري العربي الإسلامي ضد غزو البرتغاليين**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد ٣٣، (يناير ١٩٩٨م)، ص: ٣١ -٤٤.

(١٠٢) بوشرب، أحمد. "**مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي**". مجلة الوثيقة البحرينية، العدد العاشر، (يناير ١٩٨٧م)، ص: ١٦٨

(١٠٣) ذكر حسن صالح شهاب في بحثه "البحرية العثمانية" أن الحملة خرجت من المخا.

(١٠٤) مايلز المصدر السابق، ص: ٢٠٢

(١٠٥) اختلف مَنْ هو الحاكم الذي أعد الحملة، فيذهب بافقيه بأنه سنان باشا الذي عين واليًا على اليمن عام ١٥٦٨م، وخلفه في الولاية بهرام باشا عام ١٥٧٠م الذي ظل في ولايته حتى عام ١٥٧٥م، حينما عينت الدولة العثمانية مراد باشا، وقامت الحملة عام ١٥٨١م وكان الوالي على اليمن حسن باشا الذي عين واليًا عام ١٥٨٠م واستمر في ولايته حتى عام ١٦٠٥م، ولهذا فإن الإعداد يحتاج فترة من الوقت، ولكنه لم يكن طويلاً، ونرجح أن الإعداد كان في عهد مراد باشا (١٥٧٥م – ١٥٨٠م) والتنفيذ على يد حسن باشا، انظر: عمر، عمر عبد العزيز. **دراسات في تاريخ العرب الحديث**. ج١، دار النهضة العربية، بيروت: د.ت، ص: ٢٠٧ – ٢٠٨.

(١٠٦) مايلز، المصدر السابق، ص: ٢٠٢

(١٠٧) مايلز، المصدر السابق، ص: ٢٠٣

(١٠٨) توجد لمسقط ثلاثة أبواب على سور مسقط، وهي: الباب الكبير والباب الصغير وباب المثعاب.

(١٠٩) تقع ولاية بركاء شمال مسقط على ساحل الباطنة، وتبعد عن مسقط بحوالي مائة كيلو متر.

(١١٠) لعله الهلالي الجبري وهم من أمراء الجبور الذين نزحوا إلى عمان بعد سقوط دولتهم عام ١٥٢١م ومقتل أميرهم مقرن بن أجود بن زامل

(١١١) فيلبس، وندل. **تاريخ عمان**. ترجمة محمد أمين عبد الله، ط١، وزارة التراث القومي والثقافي، مسقط:١٩٨١ ص: ٥٥.

(١١٢) شهاب، المرجع السابق، ص: ١١٠.

(١١٣) حنظل، المرجع السابق، ص: ٤٨٣.

(١١٤) مايلز، المصدر السابق، ص: ٢٠٤.